سورة البقرة
المحاضرة الرابعة عشر
الآيات من 74 :78

إن الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَعُوذُ بِالله مِنْ شُرُورِ أنفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا مَنْ يَهْدِهِ الله فَلا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ وَأَشْهَدُ أن لا إِلَهَ إِلا الله وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ وَأَشْهَدُ أن مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وبعد..

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ ﷺ، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار..

" ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ (74) "

(ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ): ما المراد بـ (بَعۡدِ ذَٰلِكَ)؟

أي من بعد ما شاهدوه من الآيات البينات التي جاءهم بها موسى عليه السلام بما في ذلك قصة قتيل بني إسرائيل الذي أحياه الله بعدما أمرهم ربهم بذبح بقرة وضربهم إياه ببعضها ليقوم من موته وينطق باسم قاتله، وبعد كل هذا قست قلوبهم فهي كالحجارة أو أشد قسوة.

(قَسَتْ قُلُوبُكُم) : فما السبب في قسوة قلوبهم؟

_لم يذكر الحق سبحانه وتعالى في الآية سبب هذا التوبيخ ولكنه ذكره في موضعٍ آخر من الكتاب العزيز قال عز وجل:{فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ (13)}(المائدة).

وقال سبحانه:{ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ (16)}(الحديد)

_فبيَّن أن قسوة القلب كانت نتيجة طول الأمل ونقض المواثيق والعهود.

_السؤال الآن: وهل نقض المواثيق مع الله يؤدي إلى قسوة القلب؟ نعم. يؤدي إلى ذلك، فقسوة القلب التي تمكنت من قلوب هؤلاء كان سببها أن القوم نقضوا المواثيق والعهود.

_فلننتبه نحن : كم من مرة نقضنا المواثيق والعهود مع الله! كم مرة عاهدنا فيها ربنا على التوبة النصوح ثم عاودنا فيها الكَرّة مراتٍ ومرات! كم مرة ارتكب العبد الذنب وهو يعلم أنه مذنب وأن ما يفعله ذنبًا وبالرغم من ذلك يعود إليه مرة بعد مرة!

إشكالية : نقض المواثيق تُسبب قسوة القلب، وقسوة القلب إذا تمكنت من العبد فإن انجلاءها عن قلبه لن يكون أمرًا سهلًا،

_لقد جاء هذا الذم لبني إسرائيل لأن الحق جاءهم مِرارًا ولكنهم لم يتبعوه بل إنهم نقضوا المواثيق والعهود مع الله سبحانه وتعالى وفي هذا دليل على أن هؤلاء القوم يتميزون بصفة اللؤم؛ فمهما جاءهم من نِعَم يُنكرونها ويجحدونها ومهما جاءتهم من آيات بينات فإنهم لا يلينوا ولا يتعظوا ولا يُذعنوا للحق.

(فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ):

تشبيه المعقول بالمحسوس، فالحجارة محسوسة والقلب وقسوته معقولة (المقصود ليس القلب كمضغة ولكن القلب وما يحمله من معتقدات) فشَبّه هذا بذاك من أجل أن يُبيّن إلى أي مدى كان إعراضهم واستكبارهم على الحق وابتعادهم عنه (وهذا من بلاغة القرآن).

(فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ): قال الحق سبحانه كالحجارة ولم يقل كالحديد وكلٍ منهما يمتاز بالصلابة وربما يكون الحديد أصلب من الحجارة فلماذا شَبّه القلوب بالحجارة ولم يشبهها بالحديد؟

_قول العلماء: لأن الحديد يلين بالنار، فإذا سُلِطت عليه لَانَ وأصبح من السهل تشكيله، أما الحجارة فإنها لا تلين مهما تعرضت للنار(وهذا هو أول ذم).

(أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ):

هل (أو) جاء للتخيير في التشبيه أم لمدلولٍ آخر؟ وهل مراد الله عز وجل في هذه الآية أن القلوب كانت كالحجارة أو أشد قسوة؟

الجواب:

(أو) لم تأتِ للتخيير في التشبيه ولكنها جاءت بمعنى (بل الانتقالية) فيكون المعنى: فهي كالحجارة بل أشد منها في القسوة.

- ولكن إذا كان هذا هو المعنى فلماذا لم يستعمل الحق سبحانه كلمة (بل) بدلًا منها؟

الجواب: أن (بل) تأتي في مقام المدح أما هذا الموضع فهو مقام ذم لهؤلاء القوم العناد الشداد الغلاظ الذين فعلوا الأفعال المشينة فجاءت (أو) لتُفيد إثبات الأشد.

- وكانت أشد قسوة: لأن هناك أنواع من الحجارة (كما أظهرت الآية العلة) (وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ)

وهؤلاء ليست فيهم صفة من هذه الصفات (لا خروج للماء_ ولا خشية لله سبحانه).

(وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ):

وهل الجمادات تعرف ربها؟ **نعم:** وقد سبق القول بأنه لا مجاز في القرآن، فهناك أدلة كثيرة جدًا من القرآن والسنة تدل على هذا، قال تعالى:{يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ (1)}(الجمعة)

- فالكون كله يُسبح ولكننا لا نفقه كيفية هذا التسبيح.

(خَشْيَةِ):

والخشية هي الخوف المقرون بالعلم قال سبحانه:{ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (28)}(فاطر) أي أن مَن يخاف الله ويخشاه هم العلماء من عباده، فعظمة الله وجلاله وهيبته وأسماؤه وصفاته وعلمه وتوقيره وما عنده من الأسماء والصفات العظيمة لا يمكن أن يُدركها أحد إدراكًا كاملًا جازمًا إلا صاحب العلم، فدرجة الخشية التي تأتي نتاج المراقبة ومعرفة أسماء الله وصفاته والتحلي بآثار هذه الأسماء والصفات في السر والعلن والتأدُب بآداب الشرع والشريعة لن يصل إليها أحد إلا بالعلم، كما أن العلم لن يُوصِل لهذا الفهم والعمل إلا إذا كان هناك إخلاصًا في طلب هذا العلم.

(وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ):

وهذا دليل على سِعة علم الله وأنها عظيمة جدًا، والغفلة صفة سلبية نفاها رب العِزة عن نفسه (فالله لا يغفل)، هذه الصفة من صفات السلب والنقص المنفية عن العزيز من كل وجه، بل أن له كمال العلم والإحاطة وكمال الهيمنة على القلوب والعقول(نفي لصفة السلب من كل وجه و إثبات كمال الضد أي كمال العلم لله).

" أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ (75)"

(أَفَتَطۡمَعُونَ):

قطع للإطماع، فيا أيها المسلمون الموحدون(الرسولﷺ ومَن معه من الصحابة) هل تعتقدون أن هؤلاء القوم المعاندين الشداد يمكن أن يؤمنوا بما سيأتيهم من الحق الذي جاء من قِبَلِكُم ؟!

(أَفَتَطۡمَعُونَ): (الهمزة) للاستفهام والمراد بها الاستبعاد والتيئيس، وقيل: للإنكار والتوبيخ، وعلى القول بأنها للإنكار والتوبيخ إلا أن فيها معنى الاستبعاد والتيئيس، أي تيئيس المسلمين من أن يؤمن لهم هؤلاء القوم.

_ولكن ما هو الطمع؟ الرجاء المقرون بشدة الرغبة وقوة إرادة الشيء.

- وهناك من الطمع ما هو مذموم (في مال/ منصب/ وغير ذلك من أطماع الدنيا) وما هو محمود (شدة الرغبة والرجاء فيما عند الله تعالى) فيطمع العبد في رحمة الله وعفوه.

والطمع في هذا الموضع هو طمع محمود، فالمسلمون لديهم رجاء ورغبة وإرادة وبذلوا أقصى ما لديهم حتى يؤمن لهم هؤلاء إلا أنهم أَبَوا إلا العناد والشقاق.

(أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ): الإيمان لغةً: التصديق، أما شرعًا: فهو قول وعمل يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

(وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ):

(الواو): واو الحال، (قد): للتحقيق، والمعنى أن حال هذا الفريق (طائفة من الناس) وهم يسمعون كلام الله هو الإعراض، هذه الطائفة التي سمعت كلام الله الذي جاء به موسى عليه السلام وبالرغم من ذلك لم يذعنوا له.

- فلماذا قيل(يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ)؟ قيل: استعظامًا من الله لِمَا كانوا عليه، فبعد إقامة الحُجَج والبراهين عليهم لم يكن منهم إلا الإتيان بكل فعل مشين، فهؤلاء القوم البُهت الذين أتوا بالبهتان بعد كل ما جاءهم من الحق لا فائدة تُرجى منهم.

- الخطاب هنا: المقصود به مَن كانوا في زمن موسى عليه السلام.

- وعقيدة أهل السنة والجماعة أن الله سبحانه يتكلم، وأحيانًا كان علماء السلف يضيفون والله يتكلم بصوت وحروف، فقال الإمام البخاري:(الله يتكلم بصوت) وكذا الإمام أحمد قال هذا، فلما سئِل عن لفظة (بصوت) وهي لم تأتِ في السنة ؟ قال: لما زادوا زدنا، والمعنى :أنهم لما أنكروا أن الله يتكلم وأن الكلام ما هو إلا معنى قائم بذات الله اضطررنا إلى أن نقول أن الله سبحانه يتكلم وبصوت (وهذا يسمى مقام تحقيق الإثبات) فإذا كنت تنفي كلام الله فإنني أثبت كلامه وليس هذا فقط بل أنه يتكلم بصوت وحروف.

_فلماذا قيل صوت وحروف؟ لأن أهل اللغة أجمعوا على أن الكلام لا يكون إلا بصوت وحروف، ولا يُشبه صوت الله بصوت المخلوقين مطلقًا حاشاه ، فهو صوت يليق بجلاله وكماله، وإذا كان هناك تباين واختلاف بين أصوات المخلوقين فإن الاختلاف والتباين لابد أن يتواجد من باب أولى بين الخالق والمخلوق.

- سؤال: هل السماع لكلام الله عز وجل كان مُباشِرًا منه سبحانه؟ أم أن الطائفة التي تحدثت عنها الآية سمعوا من موسى عليه السلام تلاوة التوراة ؟ الجواب: هناك قولان للعلماء:-

1- القول الأول : أنهم سمعوا كلام الله بأنفسهم أي مباشرةً من الحق سبحانه، والدليل الأول على ذلك: ظاهر الآية والمعلوم أن الظاهر مقدم على المؤول.

- الدليل الثاني: عند ذهاب موسى عليه السلام ليعتذر من الله سبحانه على ما حدث من بني إسرائيل من عبادة العجل وغير ذلك من الأفعال الشنيعة اختار من قومه سبعين رجلًا ليذهبوا معه لميقات الله عز وجل وحين كلم الله موسى عليه السلام سمع القوم كلام الرب سبحانه له.

- الدليل الثالث: { وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ } كلمة فريق منهم دلالة على السماع المباشر لأن السماع إذا كان المقصود به سماع التوراة من موسى عليه السلام فما الذي يُميز هذا الفريق عن باقي اليهود فالكل سمعها منه ولا ميزة لهذا الفريق عن الباقين.

2- أما الفريق الثاني فقال: أن الكلام كان عن طريق موسى عليه السلام ولم يسمعوه من الله عز وجل مباشرة، وإلا فما مزية موسى إن كان إسماعهم سيكون مباشرًا من الله، إلى جانب أن سماع صوت الحق سبحانه مزية عظيمة فكيف لهؤلاء بعد كل أفعالهم أن ينالوها؟!

وأما دليلهم فهو: قال عز وجل: { وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ (6)}(التوبة)

وهذه الآية نزلت في زمن النبيﷺ وكان المقصود بها أن المشرك إذا استجار بأحد من المسلمين فعليه أن يُجِره حتى يسمع كلام الله، وهل كان المسلمون يسمعون كلام الله أم أنهم كانوا يسمعون من النبيﷺ كلام ربهم.

** فإذا كان دليل الفريق الأول هو(يسمعون كلام الله ويقولون أن الظاهر مقدم على المؤول) فهذه الآية التي نزلت في زمان النبيﷺ ترد قولهم.

(ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ):

التحريف : التغيير ومنه قولهم: حَرَفْتُ الدابةَ، يعني: غيرت اتجاهها.

** والتحريف نوعان:- - التغيير اللفظي

- التغيير المعنوي

1- التغيير اللفظي: استبدال شيء بآخر، وهذا ما وقع من بني إسرائيل بالنسبة للتوراة؛ فقد حجبوا آيات من التوراة ووضعوا عوضًا عنها نصوص من صُنع أيديهم وكأنها مجرد كتاب يحوي بعض النصوص التي يمكنهم أن يحذفوا منها ويضعوا فيها حسب أهوائهم {وَقُولُواْ حِطَّةٞ} (فقالوا حنطة)

2- التغيير المعنوي: وهو الواقع من المسلمين.

فالتغيير اللفظي لا يمكن أن يقع في القرآن لأن مَن تعهد بحفظه هو ملك الملوك سبحانه.

_لقد حرَّف أحبار اليهود كلام الله من بعد ما عقلوه وعلموا أنه كلام ربهم وتأكدوا من ذلك، فإذا كان خاصة القوم (أحبارهم وعلماؤهم وكبراؤهم) هذا هو حالهم فما ظنكم أيها المسلمون بالسفهاء منهم؟!! (هؤلاء سيكون تحريفهم لما جاء في التوراة من تعاليم أبعد بكثير مما فعله أحبارهم وكذا التزامهم بها).

" وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ (76) "

(وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ):

انتقل الحديث من الكلام عن يهود زمن موسى عليه السلام إلى يهود المدينة المتواجدين فيها على عهد النبيﷺ مع بيان لأفعالهم القبيحة في هذا العهد، فقد كان منهم فريق منافق، وكذا من المشركين فريق على نفس الشاكلة، ولكن لماذا ظهر النفاق في المدينة ؟

- أولًا: لأن مكة لم يكن يقطنها الكثير من أهل الكتاب أما المدينة فكانت موطنهم.

- ثانيًا: ما الداعي للنفاق وقد كان المسلمون مُستضعفين في مكة، أما في المدينة وبعد أن قويت شوكة الإسلام ظهر النفاق وذلك من أجل حماية أنفسهم من سيف المسلمين، فادّعوا أنهم مؤمنون بالنبيﷺ وما أنزل عليه من عند ربه، وأنهم كانوا ينتظرون قدومه حتى يؤمنوا به!!

- وصفة الغدر صفة مُتأصّلة في اليهود ولهذا اعتقدوا أن المسلمين أيضًا من الممكن أن يغدروا بهم ولهذا كانوا يدّعون الإيمان اعتقادًا أنهم بذلك سيأمنون من غدر المسلمين بهم.

(قَالُوٓاْ):

هل القول باللسان أم أنه بالجِنان (القلب)؟

القول يكون باللسان والجنان(القلب)، أما العمل فإنه يكون بالجنان والأركان، واليهود كان قولهم بألسنتهم فقط لأنهم كانوا منافقين، والمنافق ينطق لسانه بما ليس في قلبه (قَالُوٓاْ ءَامَنَّا) لأن القلب مكذب لا يُصدق شيء من الدين.

(وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ): خلا: انفرد

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ» [أخرجه البخاري(5233)]

- قيل [لا يخلون رجل بـامرأة].

- لكن في الآية قيل (إلى) {بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ} فلماذا جاء بـ(إلى) وكان من المقبول أن يقول خلا بعضهم بـــبعض؟

لأن حرف(إلى) يدل على الإيواء والتماسك والارتباط الذي بينهم أي (إذا أوى بعضهم إلى بعض) فاليهود مترابطون جدًا فيما بينهم ليكوّنوا قوة واحدة ومن ثمَّ يستطيعوا القضاء على عدوهم (المسلمين)، أما (الباء) فإنها تدل على مجرد تجمع مجموعة من الناس مع بعضهم دون أن يكون بينهم تلك المعاني.

(قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ):

استفهام للإنكار، فالحديث يدور بين اليهود حيث أن بعضهم يقول لبعض كيف تذهبون للمسلمين وتُفْصِحون عن كونهم على حق ونبيهم هو الخاتم وكتابهم هو المهيمن وأن التوراة أخبرتنا بأن دينكم هو الدين الحق، هل يُعقل أن يصدر هذا منكم، حتى لو كنتم تفعلون هذا حفاظًا على أرواحكم من الموت، هذه الأقوال التي خرجت منكم لهم سوف يُحاجوكم بها عند ربكم يوم القيامة وبالتالي ستكون أقوالكم حجة عليكم في هذا اليوم.

(أَفَلَا تَعۡقِلُونَ):

توبيخ موجه من بعضهم لبعض على ما قالوه.

ولكن هل هناك محاجاة عند الله؟ نعم: وعند الله تجتمع الخصوم،

_انتبه :يا مَن تسمع فإياك والخصومة، إياك وأعراض المسلمين، إياك وسوء الظن بأهل العلم والفضل وخاصةً الذين شهد لهم الناس بالفضل والإحسان والكرم، إياك أن يستزلك الشيطان في باب الكلام عن أهل العلم والفضل على وجه الخصوص أو على المسلمين بصورة عامة، واعلم أن الله ليس بغافل عن الصغيرة أو الكبيرة.

(لِيُحَآجُّوكُم): (اللام) هل هي لام العاقبة أم أنها لام التعليل؟

(اللام) هي لام العاقبة لأن توبيخهم للذين قالوا الحق كان الغرض منه بعد ذلك هو بيان العاقبة وليس تعليل لسبب التوبيخ، كقوله تعالى:{ فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ (8)}(القصص) وهل كان التقاط آل فرعون لموسى عليه السلام ليكون لهم عدو وحَزَن، أم أن العاقبة والمصير الذي صاروا إليه هو العداء والحزن؟

- وكذا الأمر بالنسبة لهذه الآية: فالعاقبة بعد حديثكم مع المؤمنين أن كلماتكم ستصبح سلاحًا في أيديهم وبرهان وحجة ودليل أمام الله عليكم يوم القيامة، فقد جاءكم الحق وكنتم على دراية به ولكنكم أعرضتم ومنعتم أنفسكم من اتّباعه واستمرّ إصراركم على الكفر والجحود.

" أَوَ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (77)"

فيا أصحاب البصيرة المطموسة والعقول المسلوبة أو لا تعلمون أن الله يعلم ما تسرون وما تعلنون، أنتم تتلاومون فيما بينكم وتعاتبون بعضكم، فهل اعترافكم للنبيﷺ وصحابته بأن ما جاء به هو الحق أو عدم الاعتراف يُغيّر من الأمر شيئًا؟!

إن الله عز وجل لا تخفى عليه خافية.

- الآية تتضمن السؤال: (أَوَ لَا يَعْلَمُونَ) استفهام، ولكن هل هو للتقرير أم للتوبيخ والانكار؟

1- قد يكون للتقرير: كقوله تعالى:{أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1)}

(الشرح) أي شرحنا لك صدرك.

(أولا يعلمون) أي نعم يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون.

2- وقد يكون للتوبيخ والانكار: توبيخ لأنهم أنزلوا أنفسهم منزلة الجاهل بصفات الله وعلمه وجلاله وهيمنته وعلوه على خلقه وأنه الإله الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

- كما أن الاستفهام إذا كان للتوبيخ والإنكار فسيكون أبلغ من أن يكون للتقرير ، لماذا؟

- لأنهم علموا ويعلمون أن هذا الدين هو دين الحق وبالرغم من ذلك يتوارون عن الأنظار ويلومون بعضهم على اعتراف البعض منهم بأن هذا الدين حق، فهل لهذه الدرجة غفلتم وسُلبت عقولكم حتى تعتقدوا أن إخفاءكم أن ما جاء به النبيﷺ هو الحق سيبرئكم أمام الله سبحانه! لقد انكرتم نبوة النبيﷺ ولم تعترفوا به وكذبتموه بل حاولتم قتله فهل بعد كل هذا ستنجون يوم القيامة لمجرد إخفائكم الاعتراف للنبيﷺ وأصحابه أن دينه هو الدين الحق وأنه هو الرسول الخاتم؟!

- إذًا الاستفهام للتوبيخ والإنكار مع كونه مقبول للتقرير أيضًا.

(يُسِرُّونَ): هل المقصود بالإسرار هنا هو ما يدور بين جماعة اليهود سرًا (فيما يعلمونه من صفات النبيﷺ الخاتم التي وردت في التوراة فيكتمونها فيما بينهم ولا يفصحون عنها) أم أن المقصود هو ما بداخلهم (أي في صدر كل واحدٍ منهم) ؟

- المقصود هو الجانبان معًا؛ أي فيما بينهم، و في أنفسهم وداخل صدورهم، فكلا الأمرين يعلمه الله عز وجل.

" وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ (78)"

(وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ):

في لغة العرب (الأُمِّيّ) هو الذي لا يكتب ولا يقرأ، وتبعًا لهذا القول يكون المعنى: هؤلاء القوم (اليهود) هم جماعة أمية لا يقرأون ولا يكتبون إلا أماني، والاستثناء (استثناء منقطع) فالمستثنى ليس من جنس المستثنى منه لأن الأماني مفردها أمنية

والأمنية لها معنيان:

أولا: ما يتمناه الإنسان في نفسه، فإذا قلناها بهذا المعنى يكون الاستثناء منقطع لأن عدم القدرة على القراءة والكتابة (المستثنى منه) ليس من جنس الأماني (المستثنى)؛ أي أن هؤلاء القوم لا يقرأون ولا يكتبون والكتاب بالنسبة لهم مجرد أماني ولكنها لن تتحقق وذلك مثل قولهم (نحن أبناء الله وأحباؤه_وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى)

**(واستدل أصحاب هذا القول بمعنى كلمة أُمِّيّ في اللغة)

- ثانيا : أن تمنى بمعنى قرأ ويكون الاستثناء هنا متصلا: فيكون المعنى أن منهم مَن لا يقرأ ولايكتب ولكنه يقرأ قراءة سطحية أي بدون فهم، واستدل أصحاب هذا القول بالقرآن:

{ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ (52)}(الحج)

الشاهد:(إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ) : أي (قرأ) وهذا يعني أن الأمنية تأتي بمعنى القراءة وهذا هو المعنى الثاني لهذه الكلمة، وبالتالي يكون الاستثناء متصل فالمستثنى (أماني) من جنس المستثنى منه (أميون).

** وأيًا كان الاستثناء متصلًا أو منفصلًا فإنه يحمل التوبيخ لليهود على كلا الوجهين.

والسؤال: هل التوبيخ الموجه لليهود في هذه الآيات يتوجه أيضا للمسلمين ؟ ذكر أحد علماء السلف:

أن الإنسان إذا قرأ كتابًا أيًا كان فحواه فلم يفهمه هل يمكنه أن يُجيب عن أي سؤال يُوجه إليه بخصوص هذا الكتاب أو أن يخرج منه بفائدة؟ بالطبع لا. إذًا لابد أن يفهم الإنسان كلام الله عز وجل حين يقرأ الكتاب العزيز فلا يكتفي بالقراءة واكتساب الحسنات فقط، كيف يهتدي العبد من غير فهم؟! كيف يترسخ الهُدى في القلوب ويُسيطر على العقول بدون تدبر؟!

ـ فنجد الاستهانة عند سماع الكتاب وهو يُتلى، ونجد الاستهانة بعدم الفهم لِمَا يُقرأ من الآيات، والقلة القليلة هي التي تهتم بالقراءة والحفظ ومحاولة الفهم والتدبر.

ـ ما يفعله المسلمون مع كتابهم هو صفة من صفات اليهود التي تَشَبَّه بهم المسلمون فيها، فكما كان اليهود لا يعلمون التوراة إلا أَمَانيّ، فكذلك أغلب المسلمين اليوم لا يعرفون القرآن إلا أَمَانيّ (إما قراءة من غير فهم_ إما تمني دخول الجنة) ولهذا ختم الرب سبحانه الآية بقوله (وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّون).

(وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّون):

فما موضع (إن) هنا؟ موضعها هو موضع (ما) النافية، فما تحلمون به وتتمنونه لأنفسكم لن يكون.

فيكون المراد (وما هم إلا يظنون) كقوله تعالى:{ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ} والمعنى (وما نحن إلا بشر).

** ولذلك فإن مَن رجح القول الأول (الاستثناء منقطع) كان يستند في ترجيحه أيضًا إلى (أن) أتت بمعنى (ما).

ونكمل في اللقاء القادم إن شاء الله...

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.